الفنان المعاصر والآخرون

بقلم شاكر حسن سعيد

١

للناقد الفني* مكانة ما بين الفنان والجمهور . وحينما يبدع الفنان فان على الجمهور ان يبحث بنفسه عن رؤاه في لوحاته . اما الناقد فهو حلقة الوصل بينهما ، هو الجسر الذي سيمر عليه الجمهور كي يستوعب العمل الفني . فالناقد لهذا السبب بالذات يضطلع بمسؤولية عظيمة ازاء ثقافة الجيل ، لانه جدير بازالة الجدار القائم بين الفنان والجمهور وسد الهوة التي تفصل بينهما [١] .

ولكن الناقد من ناحية اخرى مسؤول امام العمل الفني نفسه ، فاذا كان على درجة ملائمة من النضوج ، بحيث يواكب الفنان نفسه في ثقافته وفي بحثه المستمر عن القيم الانسانية والجمالية ، اصبح بمسوره ان يطور الحركة الفنية او يسرع في تطويرها على الاقل . وحينما يرسم الرسام فهناك ناقد داخلي يصحح عمله على الدوام ، فهو كامن في ذاته لكي يظهر في الوقت الملائم . ولكن جمهوراً خارجياً هو الذي سوف يحكم عليه في النهاية . وقد يحدث ان يبرز من خلال هذا الجمهور شخص متمرس بنقد ما يراه ليمثل من بعد رأي الجمهور . اما اذا حدث ومثّل الجمهور شخص قليل الكفاءة ، فان ذلك كفيل بان يسيء الى العمل الفني والفنان والجمهور على السواء .

وللناظر ان يتساءل (بعُزلة) منذ البداية [الا تعجبني هذه اللوحة ؟] او ان يرفضها مقدماً ودونما اعذار [كلا . انها مسخرة] فما اروعه في مثل ذلك !.. الا ان عليه قبل هذا ان يتأكد من وجهة نظره . فلا محاباة ولا تظاهر ولا نكاية في تذوق العمل الفني .

العمل الفني هو استيعاب كلي . وكما تقذفني بضع غمامات رمادية اشاهدها في امسية ربيع ما خلال احزاني او آمالي، ستقذفني بضعة خطوط واشكال والوان في تلك اللوحة دفعة واحدة نحو انسانيتي . وكل ما سيتبع ذلك من تحليل فانما هو تبرير فحسب. اللوحة الفنية شرك يقع فيه الانسان، وسعادتنا الحقيقية هي ان نجابه هذا الشرك لا ان نتأمله فحسب . ومن هنا فلا مسوغ لي ان اسعى عبثاً وراء التفاصيل لتبرير جمال اللوحة او قبحها. اذ مهما كانت تلك التفاصيل منطقية فانما هي القناع الذي يلبسه المتذوق امام الآخرين .

ومعرض الرسوم هو العمل النهائي للرسام . ولكنه بداية رؤيا الناظر ونهايتها . فما ينجزه الرسام في شهور واعوام يستوعبه الناظر في لحظات . ومع هذا فقد يحكم احد النظارة - دونما رويّة - على اعمال الفنان احكاماً نهائية لكي يعلنها للآخرين . وهنا يكمن خطر جسيم . فحينما اشعر بمرضي عليّ ان اعزل نفسي عن الاخرين لئلا تنتقل العدوى اليهم. والناظر الفج في احكامه الشوهاء خلال الصحف او المحاضرات مريض يجدر به ان ينقد الآخرين بالا يعرضهم لفجـــاجته .

ومع ذلك فقد يحدث احياناً ان يكون الفنان نفسه فجاً لكي ينذر الجمهور بالشر والسلبية وهنا يكمن خطر اجسم.

وليس ما هو اكثر نقاوة من العمل الفني بالنسبة للفنان . فمن خلال الالوان تزخر شتى القيم . ومن ثنايا الخطوط تحيا شتى التعابير . وبامكاني انا الرسام ان اعيش حيـــاتي كما هي خالصة من الشوائب حينما ارسم . بيد اني لن احتمل شذوذ الظروف حينما اعيش بين الاكاذيب. ذلك ان وضعي الانساني هو (الصدق) .

ولكن حياة (الانسان) مزيج غريب من المتناقضات . فما بين نتن الجيف وروائح الطيب يعيش ذلك المخلوق المثـابر . ومن هموم العمل ولغط السابلة وضباب دخان السكاير ورائحة البول في زوايا الازقة تتحرك العجلة باستمرار . بيد ان لغة العمل الفني هي ان يناضل الفنان ضد عدو ما معلوم ومجهول في نفس الوقت . ضد الفجاجة والسلبية واللاواقعيـة لان في

---

* المقال هو مجموعة من الاراء حول فن الرسم والنقد الفني ، اثبتها بمناسبة ما كتب من مقالات حول المعرض السنوي الثالث [لجماعة بغداد للفن الحديث] وما تعرضت له لوحاتي خصوصاً من نقدات .

١ الاشارة هنا الى موقف الجمهور من الفن الحديث . فهو موقف يكاد ان يكون سلبياً يثلب الفنان في جهوده وقد يتهمه (بالشعوذة) في حين ان ضحولة ثقافة الجيل من جهة وتفاعل العمل الفني مع العلم والفلسفة من جهة اخرى هما السبب الاول لذلك .

جرارة كف وصدق لهجة ونقاوة سريرة سيعيش خلالي اي كائن غائب . وبضعة لحظات امام اللوحة الفنية كفيلة بان تهبني معنى حياتي ، كفيلة بان تبعثني خلال انسانيتي .

يشقى الرجل لانه يريد ان يفعل شيئاً ويرى ان هناك ما يحول دونه . ويشقى الفنان لانه يجد ان الاخرين لايفهمونه كما ينبغي . ولكن الرسام رجل وفنان في الوقت نفسه ، ومن هنا فان شقاءه مزدوج . شقاؤه ان لا يستطيع وان لا يُفهم معاً . فهو يجد نفسه معذباً حينما لا يفعل كل ماينبغي مثلما يعذبه تماماً ان لايرضي الاخرين مـا انجزه . وهنا لسوف تتعرض خلالي الانسانية للتمزق او تكاد . فما ابنيه في لوحاتي انا الرسام يكتسب من بعدي صفة مشوهة لم اعنها مـا دامت الاجيال لاتكشف بعـد عن انسانيتها فيها كما ينبغي .

ليس ما يرسمـه الرسام وثيقة اعـتراف اكثر منه سلوكاً انسانيـاً . بيد ان ما يغري الرسام بالاستمرار في سبيله هو انه يحقق بسلوكه الفني الانسانية جمعاء.

فمهما كنت لارسم لوحاتي ، فليس ذلك لطرافتها وجدّتها بقدر ماستتعرى خلالها انسانيتي لعيون الآخرين ، انا هـذا الكائن الحي الحر . وان ما يدفع بالرسام نحو الابـداع هو ان يساهم مع المساهمين في بناء العالم البشري ، وان كان غير متأكد بعد من نهاية عمله ، لانه سيظل يشعر ابداً انه لا يزال في منتصف الطريق ، وان كان ما سيصله من مراحل لا يمثل مرحلته النهائية . اكان ذلك لانه لايعلم بالضبط لماذا يرسم ؟ . ام انه يضيق بطبيعة فنه ؟ ولكنه سيبقى متأكداً من انه يطور الحضارة والانسان ، وانه لن يحول ما بينه وبين فنه حائل ما عدا الموت . وما هذا سوى المشهد الاخير من مسرحية حياته المتكررة .

هناك اذن ما هو اعظم من الفنان (كفنان) ، اذ ليس عمله ان يبتدع فحسب وان يخلص في افراغ عبئه على سـاحل الخليج النائي . لقد كنت احنق من نفسي حينما اكتشف اني لا اصنع كل مـا ينبغي . وقد كنت اقسو الى الحد الذي امزق فيه اللوحة المنجزة او ان ارسمها من جديد . ومـن خلال تلافيف دمـاغي كانت تتبلور شتى القيم . او كنت اعبث بنفسي حينما افعل ذلك . ؟ ام كنت احقق انسانيتي . . ؟ لقد ظل خلالي كائن ما يتعذب باستمرار . وليس ذلـك لانه لم يلمس معنى حياته في رسومه ، ولم يتعرف على وجه الانسان في مرآته . وتحتم عليّ ان استمر . وتحتم عليّ ان ابحث عن (انساني) من خلالي . مخلوق يتجسد في كل الاخرين : انت وهو مثلما سيتجسد فيّ انا .

٢

(زين العابدين) و (العباس) و (الهلال والحصان) و (الفلاحون والقمر) ١ . انا اعلم اي مجهود كنت ابذله في انجاز هذه اللوحات ، واي عناء كان يصيبني لاتمامها . أهي ملكي اذن ؟ . . أهي ملك الفراشة تلك الخيوط الناعمة خيوط الشرنقة ؟ . . بيـد ان جهودي لم تعد جهودي ؛ بيد ان اللوحـة لم تكن لي ، لي وحدي ما دمت سأرسمها للاخرين .

وهكذا فان بامكان كائن من كان يحيا (انسانه) حقـاً ان يرى نفسه في (زين العـابدين) وان يشعر بنفسه في (العباس) في آن واحد . فليس ما يرسمه الرسام هو شخصه بالذات بـل هو الانسان معكوساً على ذاته . ومهما استسلم (زين العابدين) ومهما تمرد (العباس) فانما هما شخص واحد منظور من زاويتي نظر متداخلتين ومختلفتين معاً . وان بامكان الناظر ان يستوعب حياته من جديد على سطح اللوحة وان يميز الفـارق ما بين عالمين يعيشهما خلالها . عالم تحوطه المتناقضات واللامنطق . وعالم آخر منطقي يحلم به انسان العصر الراهـن . ومهما يصحح الفنان رؤياه ، ومهما تمش دودة القز في شرنقتها فان صراعاً داخلياً لا بد وان يستمر خلالي انا الكائن الحي . صراعاً رهيباً يمزقني دونما هوادة . ومن هنا فان رسومي لم تخل من الاسى والعذاب مثلما لن تخلو من التمرد ؛ فما بين جبلين اعيشهما في لحظة واحدة ستومض عـذاباتي ويلهب تمردي كما تومض شرارة النار بين حجري صوان .

الهلال والحصان – لوحة زيتية على الخشب (١٩ × ١٦٠٥)
تصوير يحيى فائق

ولكن ما يرسمه الرسام المعاصر يستدعي معاصرة الناظر في استيعابه للعمل الفني . ذلك ان غياب الانسان خلال النسخ الزائفة للآخرين هو الحجاب الذي يفصل ما بين الفنان الحديث وجمهوره . ومع ذلك فقد يحـدث ان يشعر الانسان احياناً شعوراً مبهماً بحضوره ففي لحظة مايستيقظ بغتة في داخلي ذلك الحنين الرائع للتخلص من حجابي ، وهناك سأنظر حقاً بعيني وأتنفس برئتي . هناك فحسب سأفهم معنى حياتي بكاملها . وهكذا . فحتى بالنسبة للنظر الساذج قد تنجلي له بعض الاعمال الفنية ساطعة نابضة حية . وحينئذ ستتلاشى كل تلك الحقبة الطويلة من التراث الفكري امام الانسان المجرد ليلتقي بنظيره

١ اسماء بعض لوحاتي التي عرضت في المعرض المذكور .

خلال الاشياء . ولكن دور الفنان بالنسبة للناظر لا يتعدى حدود رسمه ، اذ ليس بمستطاعي ان ازيل اقنعة الآخرين وانما اتركهم لأنفسهم وحدهم لازالتها ، لحريتهم في التعرف على حيواتهم . ومع ان الاخرين هم الذين سيكملون عمل الفنان في استيعابهم آثاره ، بيد انهم مع ذلك مخيرون في النفاذ الى اعماق النفس الانسانية خلال عمله الفني. لقد قذف بغتة بزهرة بيضاء عند ضفة الساقية بيد ان ما سيهديني ويرشدني اليها لم يكن سواي ، سوى رغبتي لرؤيتها او شمها او قطفها.

تساءل احد معارفي عما يمكن ان اقصد بـ (الهلال والحصان) ١ . ولم احر جواباً : كنت سأجيبه خلال رسومي فحسب ، خلال عملي . ومهما أجبه بلساني فان انطباعه الاول عن لوحاتي لن يزول . لقد اختار ازائي بصدق حكمه منذ البداية ومهما يصحح هو من نفسه فانما يصححها كما يريد ان يبدو امامي؛ فهل سيكون جوابي له اكثر من انه رأي طاريء..؟٢

العمل الفني لا يستوعب قطرة قطرة بل يعب عباً . وان من الارتواء ان ينهل العطشان الماء . وان من الصدى ان يتطلع اليه فحسب . ذلك ان خيطاً خفياً لا يفتأ يربط ما بين الفنان والانسان . فهو إما ان ينقطع او يستمر . وما على الناظر ان اراد ان يستوعب العمل الفني الا ان يستمر .

وما قيل عن (الهلال والحصان) ينطبق على اللوحات الاخريات . عن (الفلاحون والقمر) مثلاً. ثمة فلاحون ما بين رجل وامرأة وشاب وشيخ . وما وراءهم هو كتلة القمر بدراً بحجمه غير الطبيعي. ومنازل بعيدة بعد السراب . ولكن (الفلاحون والقمر) مع ذلك عالم بكامله . وباختيار الناظر ان يلجه او ان يحجم عنه. فما جدوى شعور الفنان وعطفه وتفكيره بالآخرين اذا كان لا يكسب الناظر الى جانبه من اول وهلة؟ وما جدوى هذا اللغط الذي يدور حول ما هو حديث وما هو اكاديمي اذا لم يشعر الفنان سواه بما تزخر به آثاره؟ وبماذا ستزخر تلك الاثار ... بماذا ..؟

هناك عالم يحتويني . لا يتسنى لي ان اتعداه ولا يتسنى له ان يتعداني . وهذا العالم هذا الكون هو [انسانيتي] . وهو هو ذلك الفلاح الماشي نحو الافق برجولته وانثويته ، بشبابه وطفولته وشيخوخته ، (بقطيعه) الذي يلبس فيه جسد الانسان ويذوب في دمائه . ولقد كان (العباس)٣ كشخصية تأريخية او ميثولوجية [اذ ان الوقائع التاريخية المتعلقة بمحنة كربلاء ومقتل الحسين وحاشيته تبلورت خلال (ادب المقاتل) من كونها حوادث الى كونها اساطير] هو المادة التي سانفذ من خلالها نحو نفس (الانسان) . فمهما يلح اذن امامي في اللوحة كائناً معذباً او حزيناً او متحفزاً فان معناه الحقيقي هو (حقيقة) الانسان التي يصالحها الناظر في العمل الفني : في ذلك المزيج الرائع من العواطف والاحاسيس والمشاعر والافكار . ثمة عالم آنيّ اشاهده، ولكنه في الوقت نفسه عالم سرمدي قريب وبعيد ، جميل وقبيح ، خير وشرير . وانما (العباس) ازائي انسان القرن العشرين الموجب يتدفق نحو الحياة والخصب بكليته، بمحاسنه ومساوئه، باحزانه وافراحه ، باحقاده وعطفه .

ولكن [زين العابدين] انسان آخر ، يعيش في اهابي انا الرسام حينما ارسمه كما يعيش تماماً خلالك انت الناظر حينما تنظر اليه في اللوحة . وهو كائن ضرسته الحياة وكبلته بقيودها ، هو انسان القرن العشرين (الاسير) قبل ان يكون تلك الشخصية الدينية من احفاد النبي (محمد) ، وهو ملك الحضارة وليس ملك حادثة تاريخية اومبكاة معينة. انه ملك الانسانية والفكر.

الا ان حياة اللوحة المرسومة حياة غير مباشرة . فانا اختار موقفي ازاء الآخرين ولكني احكم على اللوحة امامي . ومعنى ذلك اني لا اعيش سوى اللوحة التي اتذوقها . اما تلك التي ارفضها فلا . وهنا يصبح للاسلوب دور هام في نفاذ الناظر الى عالم اللوحة المرسومة . يصبح للون الزهرة ورائحتها وحلاوة رحيقها دورفعال في اجتذاب النحل والفراش والمراهقين . فالمقدار الذي تولد به مواضيعي اذن خلال المادة المرسومة خلال الاسطورة او الحادثة او الفعل سيتعبد الطريق من عندي امام الانسان . وما ذلك الطريق سوى اسلوبي في الرسم . ومن ثم كان [الاسلوب الشعبي] ١ هو طريقي للوصول الى انسانيتي ، وهو ما سيفتح براعم الانسان : هذا الحيوان الراهن الحر . لقد طمسته الاوضاع السلبية للحياة فهو مسربل بالدم والصديد وهو ابداً اديم طفولي ملطخ بالقروح والبثور . لقد القي بلؤلؤة في مزيج من الطين والاقذار . فما على الفنان الا ان يعثر على تلك اللؤلؤة الضائعة لينقذها .

ولكن هذه الماكنة المعقدة (انا) هذه اليد الباحثة عن اللآليء ، ما اشد كآبتها اذا هي لم تزدحم بالاشياء ، بشظايا النفوس البشرية الحية . بيد ان الاشياء نفسها لا تبقى جديرة بالاهتمام اذا هي لم تكن طبيعية تعيش في الكل والجزء في نفس الوقت . وهكذا، فمن خلال اجساد وعواطف واحلام وهذيان تلك الكائنات البشرية سينتزع الفنان رؤاه ونماذجه . ولكنه لن يكتفي بوصفها من الخارج لأني لن اصدق الوصف اذا لم يبتديء مني انا الرسام . ولقد ينتزع الفنان كل تلك الرؤيا من خرافات الحياة واساطيرها ولا شعور مجتمعها مثلما ينتزعها تماماً من عالمها الخارجي . وما ذلك الا ليعيد هكذا من عنده نحوها وعبرها. فلا هي ازاءه من الاموات ولا الاحياء ولكنها من كليهما .

٣

الفنان هذا المخلوق الغريب . ما اشد عناءه : كان يضيء ذات مساء طريقاً للاخرين. وقد كاد عود ثقاب ان يحرق انامله. بيد ان صوتاً عميقاً كان يحذره ، وكما تحذر عصافير السدرة اعشاشها من الرعود كان سيحذره ذلك الصوت النائي. ولكن ثمة حروفاً لا بد وان تترك آثارها من اجل النور. ومن اجل النور ايضاً كان سيُضحّى حتماً للاخرين .

وكذلك تنمو دودة القز باستمرار لكي تنسج خيوط الحرير . فاذا انقذت الشرنقة في الوقت المناسب ماتت اليرقة في داخلها. اما اذا احتفظت الصدف بحياة الفراشة فان ثمن ذلك خيوط الحرير . وخيوط الحرير والفراش كالعمل الفني والفنان .

بغداد **شاكر حسن سعيد**
من جماعة بغداد للفن الحديث

١ انظر الصورة . [الالوان زيتية. المقياس (١٩ × ١٦٫٥). تصوير يحيى فائق ١٩٥٥ .]

٢ الاشارة هنا الى رأي الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) فيما يتعلق بمشكلة [الاختيار] .

٣ في اللوحة [بالالوان الزيتية على الخشب] هو الانسان والحيوان معاً ، الفارس وحصانه المتحفز . فما العباس كشخصية اخرى سوى مادة للبناء ورمز للتعبير .

١ المقصود به هنا نقطة انطلاق الفنان الحديث في التعبير من خلال الطبقة العامة ومن مستوى للسلوك شامل يوجد بين التفكير والشعور واللاشعور في العمل الفني . وهي نقطة انطلاق يمارسها الفنان المغمور في المجتمع مثل رسامي الجدران والصور الدينية المطبوعة ، ومن مشاهيرهم في تاريخ الفن الحديث (روسو – لودونيه)